حرف اللام

لَبِيدُ بن رَبيعَة العامريُّ رضي الله عنه

الشاعرُ المُخَضْرَمُ

صحابي، عامري، جعفري، شاعر مخضرم، واحد من فحول الشعراء، ومن أصحاب المعلقات الذائعي الصيت، كانت «تامر بنت زنباع» العبسية، تزوجت «قيس بن جزء بن خالد بن جعفر» فولدت له «أربد بن قيس» ثم خلف عليها «ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب» العامريُّ، وقد أنجبت له «لبيد بن ربيعة»، وكان «ربيعة» يلقَّب بربيعة المقترين ـ أو ربيع المقترين ـ لسخائه، وقد قتله بنو أسد في حرب بينهم وبين قومه.

كان «أربد بن قيس» أسَنَّ من أخيه «لبيد بن ربيعة»، فلما قتل والد «لبيد» كفله أعمامه بنو «أم البنين» لصغر سنه، فنشأ في أكنافهم، وكان يكنى: «أبا عقيل».

وكان «أربد» شديداً على أعدائه، ليناً عطوفاً على ذوي القرابة، وبخاصَّةٍ على أخيه «لبيد»، وقد ذكره «لبيد» في شعره، فقال بعد مصرعه بصاعقة أحرقته:

وأرى أربـدَ قـد فـارقـنـي ... ومـن الأرزاءُ رزْءٌ ذو جَـلَـلْ

مُـمْـقِـرٌ مُـرٌّ عـلـى أعـدائـه ... وعـلـى الأدنَـيْـن حُـلْـوٌ كـالـعَـسَـلْ

وأخذ نجم «لبيد» يلمع في سماء الشعر، حين رافق أعمامه، وقد أرادوا أن يدخلوا على الملك «النعمان بن المنذر»، فما الذي جرى يومئذٍ؟ يقول الراوية «حماد»[1]، [نظر «النابغة الذبياني» إلى «لبيد بن ربيعة» وهو صبي مع أعمامه على باب «النعمان بن المنذر» فسأل عنه، فنسب له، فقال له: يا غلام، إن عينيك لعينا شاعر، أفتقرض من الشعر شيئاً؟ قال: نعم، يا عم! قال: فأنشدني شيئاً مما قلته، فأنشده قوله:

أَلَـمْ تُـرْبِـعْ عَـلَـى الـدِّمَـنِ الـخَـوالـي؟

فقال له: يا غلام، أنت أشعر بني عامر، زدني يا بني! فأنشده:

طَـلَـلٌ لِـخَـولَـةَ بـالـرسـيـس قَـديـمُ

فضرب بيديه إلى جنبيه، وقال: اذهب، فأنت أشعر من قيس كلها، أو قال: هوازن كلها، وتجيء هذه الرواية بشكل آخر فتزيد أنه أنشده:

عَـفَـتِ الـديـارُ مَـحَـلُّـهـا فَـمُـقَـامُـهـا

فقال له: اذهب، فأنت أشعر العرب!]

إن هذه الراوية برهان ودليل على أن «لبيداً» اقتحم مضمار الشعر الرفيع، وهو ما يزال غلاماً، وأنَّ شهادة «النابغة الذبياني» الخبير العليم في صناعة الشعر، له لم تأتِ من فراغ!. وقد وصف «ابن قتيبة» شعر «لبيد» بسهولة المنطق ورقة الحواشي، وخالفه «الفَرَّاء» حيث قال: لبيد وابن مقبل يجريان مجرًى واحداً في خشونة الكلام وصعوبته.

أما الأصمعي فوصف شعره بالطيلسان الطبري، وقد قيل في تفسير ذلك: إنه جيد الصنعة، وليست له حلاوة، ولم يعده في

(١) شرح ديوان لبيد للدكتور إحسان عباس ـ طبع الكويت (ص ٢١).

الفحول، ووصفه بالصلاح تهرباً من الحكم على شعره[١].

وقد أخرج ابن هشام في السيرة النبوية[٢] ما رواه ابن إسحاق، عما جرى بين «عثمان بن مظعون» صاحب رسول الله ﷺ و«لبيد بن ربيعة» قبل أن يدخل «لبيد» واحة الإسلام:

[قال ابن إسحاق: فأما «عثمان بن مظعون» فإن صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمٰن بن عوف، حدثني عمن حدثه، عن عثمان، قال: لما رأى «عثمان بن مظعون» ما فيه أصحاب رسول الله ﷺ من البلاء، وهو يغدو ويروح في أمان «من الوليد بن المغيرة»، قال: والله! إن غدوي ورواحي آمنا بجوار رجل من أهل الشرك، وأصحابي وأهلُ ديني يَلْقَوْن من البلاء والأذى في الله ما لا يُصيبني، لنقص كبير في نفسي، فمشى إلى «الوليد بن المغيرة» فقال له: يا أبا عبد شمس، وفت ذِمَّتُك، قد رددت إليك جوارك، فقال له: لِمَ؟ يا بن أخي! لعله آذاك أحد من قومي، قال: لا، ولكني أرضى بجوار الله، ولا أريد أن أستجير بغيره، قال: فانطلق إلى المسجد فاردد علي جواري علانيةً كما أجرتُك علانية، قال: فانطلقا فخرجا حتى أتيا المسجد، فقال الوليد: هذا «عثمان» قد جاء يرد عليَّ جواري، قال: صدق، قد وجدته وفيّاً كريم الجوار، ولكني قد أحببتُ ألَّا أستجير بغير الله، فقد رددتُ عليه جواره، ثم انصرف «عثمان»، و«لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب» في مجلس من قريش ينشدهم، فجلس معهم «عثمان» فقال لبيد:

أَلاَ كُلُّ شَيءٍ مَا خَلاَ اللهَ بَاطِلُ

قال «عثمان»: صدقتَ، قال «لبيد»:

---

(١) انظر الموشح للمرزباني (٧١).

(٢) ابن هشام (١/ ٤٠٧).

وكـــلُّ نـــعـــيـــمٍ لا مـــحـــالـــةَ زائـــلُ

قال «عثمان»: كذبتَ، نعيم الجنة لا يزول، قال «لبيد بن ربيعة»: يا معشر قريش، والله! ما كان يُؤْذَى جليسكُم، فمتى حدث هذا فيكم؟ فقال رجل من القوم: إن هذا سفيه في سفهاء معه، قد فارقوا ديننا، فلا تَجِدَنَّ في نفسك من قوله، فردَّ عليه «عثمان» حتى شَرِيَ[1] أمرهما، فقام إليه ذلك الرجل فلطم عينه فخضَّرها، و«الوليد بن المغيرة» قريب يرى ما بلغ من «عثمان»، فقال: أما والله! يا بن أخي! إن كانت عينك عمَّا أصابها لَغَنِيَّة، لقد كنت في ذمةٍ منيعة، قال: يقول «عثمان»: بل والله! إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله، وإني لفي جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس، فقال له «الوليد»: هَلُمَّ يابن أخي، إنْ شئت فعُدْ إلى جوارك، فقال: لا].

وكان للبيد شرف في الجاهلية، وقد زاد بالإسلام ذلك الشرف، وكان يطعم الناس الطعام، وقد ذكر «ابن قتيبة» في كتابه «الشعر والشعراء»[2]: [وكان «لبيدٌ» آلى[3] في الجاهلية ألا تَهُبَّ الصَّبا إلا أطعم الناس حتى تسكُنَ، وألزمه نفسَه في إسلامه، فخطب «الوليد بن عقبة» الناسَ بالكوفة يوم صَبأ، وقال: إن أخاكم «لبيداً» آلى ألَّا تهب الصَّبَا إلَّا أطعم الناس حتى تسكُنَ، وهذا اليوم من أيامه، فأعينوه وأنا أول من أعانه، ونزل فبعث إليه بمائة بَكْرةٍ، وكتب إليه:

أرى الـجـزار يـشـحـذ شـفـرتـيـه إذا هَـبَّـت ريـاحُ أبـي عـقـيـل

أشَـمُّ الأنـف أصـيـدُ عـامـريٌّ طويلُ الباع كالسيف الصقيل

(١) شَرِيَ: زاد وعظم.
(٢) الشعر والشعراء (١/ ٢٧٦).
(٣) آلى: أقسم ونذر.

وفَى ابن الجعفري بحلفتيه على العِلَّات[1] والمال القليلِ
بنحر الكومِ إذ سَحَبت عليه ذيولَ صَباً تجاوَبُ بالأصيل

فلما أتاه الشعر قال لابنته: أجيبيه فقد رأيتُني وما أعيا بجواب شاعر، فقالت:

إذا هبَّت رياحُ أبي عقيلٍ دعونا عند هَبَّتها الوليدا
أشمَّ الأنف أصيدَ عَبْشَمِيّاً أعان على مروءته لبيدا
بأمثال الهضاب كأنَّ ركباً عليها من بني حامٍ قُعُودا
أبا وَهْبٍ جزاك الله خيراً نحرناها وأطعمنا الثريدا
فعُدْ إن الكريم له معادٌ وظني يابن أروى أن تعودا

فقال لها «لبيد»: أحسنت لولا أنك استطعمتيه، قالت: إنَّه مَلِكٌ وليس بسُوقة، ولا بأس باستطعام الملوك]. وكان «لبيد» من المؤلفة قلوبهم[2]. وقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه[3]: [حدثني محمد بن المثنى، حدثنا غُنْدَرٌ، حدثنا شعبة، عن عبد الملك بن عمير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: **(أصدقُ بيت قاله الشاعر:**

ألا كل شيء ما خلا الله باطلُ)].

وفي حديث آخر[4]: [حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن عبد الملك، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: **(أصدق كلمة قالها الشاعر، كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله**

(١) على العِلَّات: على كل حال؛ في العسر واليسر.
(٢) ابن الأثير في أسد الغابة (٣/ ٥٥٥).
(٣) صحيح البخاري برقم (٦١٢٤).
(٤) صحيح البخاري برقم (٣٦٢٨).

باطل، وكاد أمية بن أبي الصلت أن يُسْلِمَ).

وذكر ابن قتيبة في الشعر والشعراء[١]: [وأدرك «لبيد» الإسلام، وقدم على رسول الله ﷺ في وفد بني كلاب، فأسلموا ورجعوا إلى بلادهم، ثم قدم «لبيد» الكوفة وبنوه، فرجع بنوه إلى البادية بعد ذلك، فأقام «لبيد» إلى أن مات بها، فدفن في صحراء بني جعفر بن كلاب، ويقال: إن وفاته كانت في أول خلافة «معاوية» وأنه مات وهو ابن مائة وسبع وخمسين سنة. ولم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً، واختُلِفَ في البيت، قال أبو اليقظان: هو:

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي حتى كساني من الإسلام سربالا

وقال غيره: بل هو قوله:

ما عاتب المرء الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح

وقال له «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه: أنشدني من شعرك، فقرأ سورة البقرة، وقال: ما كنت لأقول شعراً بعد إذ علمني الله سورة ﴿البقرة﴾ و﴿آل عمران﴾، فزاده «عمر» في عطائه خمسمائة درهم، وكان ألفين، فلما كان زمن «معاوية» قال له «معاوية»: هذان الفَوْدَان[٢] فما بال العِلاوة؟ يعني بالفَوْدَيْنِ الألفين، وبالعلاوة الخمسمائة، وأراد أن يحطه إياها، فقال: أموت الآن وتبقى لك العِلاوة والفَوْدان! فرَقَّ له «معاوية» وترك عطاءه على حاله، فمات بعد ذلك بيسير]. وقيل: إنه لم يدرك خلافة «معاوية»[٣].

وروي أن الشعبي قال لعبد الله بن مروان: تعيش ما عاش «لبيد بن

---

(١) الشعر والشعراء (١/ ٢٧٥).
(٢) الفُودان: العِذْلان يوضعان على جانبي البعير.
(٣) أسد الغابة (٣/ ٥٥٦).

ربيعة»، وذلك أنه لما بلغ سبعاً وسبعين سنة أنشأ يقول:

باتت تشكيّ إليَّ النفس مُجْهِشَةً وقد حملتُك سبعاً بعد سبعينا
فإن تزادي ثلاثاً تبلغي أملاً وفي الثلاث وفاء للثمانينا

ثم عاش حتى بلغ تسعين، فقال:

كأنّي وقد جاوزت تسعين حجةً خلعت بها عن منكبيَّ ردائيا

ثم عاش حتى بلغ مائة وعشراً، فقال:

أليس في مائة قد عاشها رجلٌ وفي تكامل عشر بعدها عُمُرُ

ثم عاش حتى بلغ مائة وعشرين، فقال:

ولقد سئمتُ من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس كيف لبيد؟[1]

وقد قلَّ شعره بعد إسلامه لعكوفه على القرآن، وسُلُوِّه لعادات الجاهلية وأعرافها وتقاليدها ومباحاتها التي حظرها الإسلام، وأياً كانت سن «لبيد» عند وفاته، فقد كان من المُعَمَّرين الذين نأوا بأنفسهم عن النار، رحمه الله تعالى.

(١) الاستيعاب (٣/ ١٣٣٨).